شعرية المفارقة وأثرها على قلق الوجود والفناء عند أبي العلاء المعري

إعداد

محمود معروف عبد النظير معروف

إشراف/

أ.د.صلاح السروي

أستاذ الأدب العربي بكلية الآداب جامعة حلوان

مقدمة:

تعد المفارقة من الدراسات الحديثة التي تعنى بدراسة النص الأدبي بطريقة تعتمد على القراءة المتأنية للنص، وتقليب وجوهه وبيان مستويات الدلالة فيه وتعددها، " إذ المفارقة داخلة في الصميم من رؤية المبدع وموقفه، فهي في المقام الأول مبنية على رؤية تأملية فلسفية للذات والوجود"[i]، مما دفع بعض النقاد إلى القول: "إن لغة الشعر هي لغة المفارقة"[ii].

وتقوم المفارقة في أساسها على التناقض (Paradox)، والازدواج في اللغة؛ ومن أبسط صورها أن تقول شيئًا وتعني آخر، وهذا يعني أن المفارقة تقوم على الضدية في المعنى، " فهي لفظة تحمل معنيين: المعنى الظاهر، والمعنى الباطن المتوارى، ولا يدرك اختلاف المعنيين إلا صانع المفارقة، وقارئ واعٍ ومدرك لحقيقة المفارقة"[iii]، وهذا ما جعل نبيلة إبراهيم تقول: "إنما المفارقة لعبة لغوية ماهرة وذكية بين طرفين: صانع المفارقة وقارئها، على نحو يقدم فيه صانع المفارقة النص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي؛ وذلك لصالح المعنى الخفي الذي غالبًا ما يكون المعنى الضد.."[iv]، ولا تختلف سيزا قاسم مع نبيلة إبراهيم، في أن المفارقة تعتمد على العقل وتحتاج إلى الذكاء في كشفها، حيث تقول: "إن المفارقة لعبة عقلية من أرقى أنواع النشاط العقلي وأكثرها تعقيدًا، فنحن لا ننظر إليها بوصفها تقنية شعرية في الدراسات الحديثة فحسب، بل ننظر إليها بوصفها عنصرًا مهمًّا من عناصر العمل الفني"[v].

أما ميويك فتمرد على المعنى القديم للمفارقة، فلم تعد تعني عنده "قول شيء والإيحاء بقول نقيضه؛ بل المفارقة قول شيء بطريقة تستثير لا تفسيرًا واحدًا، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المتغيرة"[vi]، والتي يحاول أن يصل المتلقي إلى فك شفرتها، وعندئذ يصبح القارئ (المدرك الواعي) عنصرًا رئيسيًا من عناصر المفارقة؛ وهذا ما أشار إليه شليجل الذي أعطى القارئ الذكي دورًا بارزًا في صنع المفارقة[vii].

فقد نظر علماء الغرب إلى المفارقة بوصفها مصطلحًا فنيًّا قائمًا بذاته يحمل ثنائية في الدلالة، أو معنيين أحدهما سطحي والآخر عميق، والمعنى الذي يقصده المبدع هو المعنى العميق/البنية العميقة، والذي يجتهد القارىء في اكتشافه، ولذلك فالمفارقة عندهم تتطلب متلقيًا جيدًا مدربًا بإمكانه تخطي المستوى السطحي ليصل إلى المستوى العميق، وهو ما يجعلها تقترب من مفهوم الشعرية بمعناها الحداثي والتي تعد " وظيفة من وظائف العلاقة بين البنية العميقة والبنية السطحية" وتتجلى هذه الوظيفة في علاقات التطابق المطلق أو النسبي بين هاتين البنيتين، فحين يكون التطابق مطلقًا تنعدم الشعرية/ المفارقة، وحين تنشأ خلخلة وتغاير (الفجوة:مسافة التوتر) بين البنيتين تنبثق الشعرية وتتفجر بقدر هذا التغاير بينهما (viii).

ويتضح من خلال ما سبق ذكره "أن المفارقة تقوم على الغموض، والازدواجية الدلالية التي تعد أساسية في طبيعتها"(ix)، " ومن ثمَّ فإن فن المفارقة يتحقق حين يقال الشيء دون أن يقال، أو حين يكون القصد مفهومًا دون أن يكون جليًّا"(x).

الموضوع

إنَّ الناظر إلى إبداع المعري يرى بوضوح كيف تسود فيه المفارقة، والتي تقوم في الأساس من خلال علاقتها مع العالم الذي يقوم في جوهره على التناقض، حتى تحولت القصيدة عنده إلى قصيدةٍ تحققَ فيها أعلى درجاتُ التوتر واللذة في النص، ومن هنا كان البحث خلف هذا الإبداع ومن خلال هذا الوعي الضدي به، وهو كيفية الإمساك بكليته المتنافرة من خلال الصراع بين المطلق والنسبي، ومن خلال الوعي الكامل بهذه الفوضى السائدة في المجتمع، وهو وعي بالذات نفسها قبل الوعي بالآخر، ومن هنا تنشأ المفارقة الساخرة التي تنتج من خلال علاقةٍ قائمةٍ على التقابل الدلالي، كقوله متهكمًا ببعض الناس ضِعاف العقول الذين يشربون الخمر(xi):

أرَى بَشَرًا عقولَهُم ضِعافٌ أزالُوهَا لتُعْدَمَ بِالخُمُورِ

أبانُوا عَن قبائحَ مُنْكَـرَاتٍ فَدَعْ مَا لا يبينُ من الأمورِ
وعاشوا بالخداعِ فكلُّ قومٍ تُعَـاشِرُ مِنْ ذئابٍ أو نُمُورِ
إذا ضَحِكُوا لزيدٍ أو لعَمرو فإنَّ السُّـم يُخْبَأ فِي العُمـورِ

تتجلى المفارقة في الأبيات من خلال نبرة التهكم بهؤلاء الذين ضَعُفَتْ عقولُهم، فانكبوا على الخمر يحتسونها؛ فأزالت عقولهم، فكان ضعف العقول سببًا لشرب الخمر، وكان شرب الخمر سببًا في ضياع العقل نهائيًّا.

ونلمح كيف صدّرَ المعري الأبيات بفعل (الرؤية)، حيث صقلته الحياة، وحنكته التجارب، ولذلك فالكلام صادر عن إنسان يرى ببصيرته ما لا يراه المبصرون بأعينهم!، وتمتد دلالة التهكم إلى البيت الثاني، فيصفهم بالتبجح؛ لأنهم يظهرون قبائحهم، ويجاهرون بالمعاصي، وقد جاء بكلمة (قبائح) جمعًا لتدل على كثرتها، ثم وصفها بمنكرات ليزيد السوء سوءً.

ويمتد بالبنية نفسها في البيت الثالث حيث عاش هؤلاء الناس بالخداع في حياتهم، وهم مثل مَن عرفهم وصحبهم، حيث يتصفون بالخبث والخداع مثل (الذئاب) وبصفة الافتراس مثل (النمور)، ثم تبلغ بنية التهكم ذروتها في نهاية الأبيات حيث اختلف المظهر عن المخبر، حيث ينافق هؤلاء مَن حولهم ويضحكون لهذا وذاك، وهم في حقيقتهم كالحيات التي تُخْفِي سمَّها في منابت أسنانها، تترقب فريستها.

ويقول أيضًا في تغير أحوال البشر معتمدًا المفارقة [xii]:

مُـــــلَّ المُقامُ فَكَم أُعَاشِرُ أُمَّةً أَمَرَتْ بغيرِ صَلَاحِها أُمَرَاؤهَا
ظلمُوا الرعيَّةَ واستجازُوا كَيْدَهَـا فَعَدُّوا مَصَالِحَها وهم أُجَرَاؤُهَا
فِرَقًـــــا شَعَرْتُ بأنَّها لا تَقْتَنِـي خيرًا وأنَّ شــرارَها شُعَرَاؤُهَا
أثْرَتْ أحـــاديثَ الكِرامِ بِزَعْمِهَا وأجـادَ حَبْسَ أكُفِّها إِثْرَاؤُهـــا

وإذا النفوسُ تجاوزتْ أقدارُهـــا حذو البَعُوضِ تغيرتْ سُجَرَاؤُها

كصحيحةِ الأوزانِ زادتْها القُوى حَرْفًا فبانَ لسِامعٍ نَكْرَاؤُهَـــــا

بدأ الشاعر الأبيات بفعل مبني للمجهول؛ ليحرك الدلالة من الخاص إلى العام فقد ملَّ الشاعر الإقامة في الحياة والعيش فيها.

ومن المفترض أن يعمل الأمراء والحكام لما فيه صالح شعوبهم، ويؤدوا الأمانة التي استخلفوا فيها، ويعملوا- دائمًا- لإسعاد شعوبهم والحكم فيهم بما أمر الله؛ حتى يستقيم لهم الملك، وتسعد رعيتهم بهم، ولكن انقلب الحال وتحوَّلَ هؤلاء الأمراء والحكام إلى طغاة مستبدين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف! وقد ظلموا شعوبهم ظلمًا بيّنًا ورأوا ذلك جائزًا، بل أهملوا ما يصلِح شعوبهم والأصل في حكمهم أنهم وكلاء عن الرعية أُجَرَاء عندهم، ولكن انقلب حالهم إلى النقيض، ولذلك ضاق الناس ذرعًا بهم والحياةَ في كنفهم، وتحول المجتمع إلى فرق ومذاهب شتى، لا يزالون مختلفين.

وقد كان من المفترض أن يقوم الشعراء بدورهم في الإصلاح وتقويم المعوج، وإذ بهم ينقلب حالهم، بل ويصبحون شر الناس بعدما كان يُناط بهم الخير، ويُعقد عليهم أمل الإصلاح.

ثم امتد بالمفارقة ليصل إلى أمة العرب، التي كثرت روايتها لأخبار الجود وأحاديث الأجواد، والصفات النبيلة التي يتجلى بها العرب، ولكن حالهم وواقعهم على خلاف ذلك، فهم أشد الناس بخلاً بالمال، وضنًّا بما يملكون.

ثم يمتد حديثه عن الأمة العربية أيضًا التي جنت من ثمار الحياة وخيراتها ما لم تكن له أهلا، ولقيت من النعيم ما لم تكن له خليفة، ولكن انقلب حالها إلى النقيض، فالأصل أن تؤدي شكر هذه النعم، ولكن هذه الأمة طغت وأفسدها الغنى!

ثم انتقل بالمفارقة إلى النفس البشرية فيقول: لم أرَ شرًّا منها فهي إذا تجاوز قدرها جناح بعوضة انقلب حالها وفسدت طبيعتها، وأصبحت كقصيدة الشعر التي يزينها صحة وزنها، فإذا زِيدَ فيها حرفٌ ظهر للسامع عيوبها واختلالها.

فحاول أبو العلاء- بمقدرته الإبداعية- أن يرسم لنا صورة مفارقية في هذه الأبيات بيَّن فيها تغير حال حكام العرب وانقلابهم وضعفهم وتفككهم كأنهم اتفقوا على ألا يتفقوا، وكانت رؤيته ثاقبة تجاوزت عصره بقرون عديدة، والواقع خير شاهد على ذلك، ثم استطاع أن يوسع مجال المفارقة فشمل شعراء عصره المعنيين بالإصلاح، ولكن ضَعُفَ أمله وخاب رجاؤه، حيث وجدهم على عكس ما توقع منهم، ثم تجاوز ذلك إلى أعماق النفس البشرية التي تغبنها النعمة، ولكنها تجحد الفضل!.

ومن المفارقة أيضًا تظاهر الإنسان بغير ما هو عليه حيث يظهر عنصر المخادعة المقصودة من إنسان لا نتوقع منه هذا الفعل وذلك الصنيع، ويظهر من خلال الأبيات أن الإنسان المخادع هو صانع المفارقة، وضحيتها أيضًا، فيقول[xiii]:

رُوَيدكَ قد غُرِرْتَ، وأنتَ حرٌّ، بصاحب حيلةٍ يعظُ النّساءَ

يحرّم فيكمُ الصهباءَ صُبْحا، ويشربُها، على عمدٍ، مساءَ

تحسّاها، فمن مزجٍ وصِرْفٍ يَعُلُّ، كأنَّما وَرَدَ الحِساءَ

يقولُ لكم: غدوتُ بلا كساءٍ، وفي لذّاتِها رهَنَ الكِساءَ

إذا فعل الفتى ما عنه يَنهى، فمن جِهتَين، لا جهةٍ، أساءَ

تظهر الأبيات مَن يدَّعي أنه فقيه عالم، حيث يكثر فيكم الوعظ ويثقلكم بالنصح، ويتردد على نسائكم مرشدًا وهاديًا وأنتم له مصغون، وحوله محتشدون، تتفطر قلوبكم من قوله، وتذرف مآقيكم الدموع تأثرًا به، ولكن انتبهوا فقد غفلتم عن الحقيقة، وانخدعتم بالظاهر المزيف وهنا يتحول (الدال) بتغير الموقف الذي تغير إلى عكس المتوقع، فإذا بهذا

الإنسان الذي أعطيتموه ثقتكم، وسلمتم له جوارحكم- محتال- مخادع كذاب أشِر؛ فهو يظهر لكم النسك ويأمركم بالتقوى، وهو بعيد عنها، ينهاكم عن الخمر، وهو لها مدمن، يتظاهر أمامكم بعجزه وفقره، وإنما أفقرته معصيته.

اسألوا هذا المخادع الذي يتظاهر بأنه ليس عنده كساء يستره أين كساؤك؟ فإذا لم يجبكم، فأسألوا صاحب الخمارة عن الكساء ستجدونه مرهونًا لديه، وتجلت المفارقة في الأبيات من تغير حال الإنسان ومخادعته من حوله من الناس الذين وثقوا فيه الثقة كلها، لكن ظهرت حقيقته التي جاءت بعكس المتوقع تمامًا.

وقد أجاد أبو العلاء توظيف المعجم اللغوي في الكشف عن هذه المفارقة من خلال ثنائيات المواقف المتناقضة فهو:

(يعظ الناس ويحرم الصهباء صبحًا) ⟵ (ويشربها على عمد مساء)

(يقول مدعيًا: غدوتُ بلا كساء) ⟵ (رهن الكساء بسبب إشباع لذاته)

ثم يختتم الشاعر الأبيات بحكمة نخرج بها من هذه المفارقة، مفاداها: أن شر الناس من ينهون عن المعاصي ويقترفونها، فهم يسيئون من جهتين لا من جهة، يسيئون لاقتراف الآثام، ويسيئون لغش الناس وخداعهم بالقول وهم يفعلون غير ما يقولون!

وفي مفارقة أخرى يعبر فيها أبو العلاء عن كرهه للحياة ملحِقًا بها أقبح الصفات وأشدها سلبية بقوله[xiv]:

ووجـــــدتُ دنيانا تُشابه طامثًا، لا تستقيمُ لناكحٍ إقْراؤهـــا [xv]

هويتْ، ولـم تُسعفْ، وراح غنيُّها تَعبِـًا، وفازَ، براحةٍ، فُقراؤها

وتجـــــادلتْ فقهاؤها من حُبّها، وتقرّأت، لتنالها، قُرّاؤهـــا

وإذا زجرتُ النفس عن شغف بها، فكأنّ زجْرَ غويّها إغراؤهـا

يصور أبو العلاء الدنيا كونها لا تعدو أن تكون لديه سوى امرأة حائض، لكن حيضها يختلف عن الحيض الطبيعي المعهود لدى المرأة، حيث يعقب مدة الحيض وقت تطهر فيه المرأة، بينما حيض الدنيا دائم، فالمفارقة لا تكمن في كون طهر الدنيا معدومًا فحسب، وإنما في كونها تُوقِعُ البشرَ في حبائلها، وتدفعهم إلى حبها والتهالك عليها، وذلك لما تظهر به من مظهر خلاب لا يستطيع المرء مقاومته، فإذا ما اقترب منها أكثر اكتشف حقيقتها المرّة، تلك هي انعدام طهارتها التي تحول دون الاتصال بها، فهي حائض أبد الدهر.

ومع ذلك، فإن صفتها البشعة تلك لا تحول دون كد أغنيائها وتعبهم في سعيهم الحثيث وراءها، ولا تمنع جدل الفقهاء وقراءة القراء، لا لإظهار حق وكشف زيغ وضلال، وإنما يفعلون ذلك طمعًا فيما يمكن أن ينالوا به من دنياهم تلك أو ما هداهم جدلهم وقراءتهم إلى معرفة حقيقة الدنيا التي يتنافسون في حبها، ويختصمون في سبيل بلوغها والاستئثار بها، والغريب هو اكتشاف بعضهم لحقيقتها تلك وزجرها لنفوسهم عن طلبها والكف عن متابعتها، لكن النفوس بها متعلقة، والأعناق إليها مشرئبة، وكأنما زجر النفوس عن طلبها يقوم مقام الإغراء، ولنتأمل هذه المفارقة البارعة، فثمة مَن يزجر نفسه عن حبها، لكن نفسه تتعامل مع هذا الزجر وكأنه إغراء يدعوها إلى مزيد من الشغف بها ومزيد من التعلق، على الرغم من معرفته لحقيقتها.

ثم يقرر أبو العلاء أن محبي الدنيا وأغنياءها في تعب دائم؛ لأنهم كلما حصلوا منها على شيء طمعوا في آخر، فمثلهم ومثلها كمثل من ينظر إلى المرأة الحسناء في مظهرها، الشنعاء في حقيقتها، فكلما جادت عليه بنظرة أو ابتسامة استحثَّ السيرَ و جدَّ في طلبِها، وحاول الحصول على المزيد منها، دون أن يدرك حقيقة كنهها، التي لا تفارقها ولا تغيب عنها، ودون أن يدرك أنه ضحية مفارقة التناقض بين مظهرها الحسن الجميل، وبين

مخبرها السيء، ودون أن يعرف أنها تتلاعب به وبمشاعره مع علمها بأنها لا تحل له، فيبقى في كد وتعب، وأما من زهدَ فيها فقد فاز وربح، حيث أراح نفسه من عناء التعب والكد في ملاحقة ما لا فائدة فيه ولا نفع .

وقال أيضا في فناء الحياة [xvi]:

صَـــاحِ هَـذِي قُبُورُنا تَمْلأ الرُّحْـ ... بَ فـأينَ الـقُبُورُ مِنْ عَهدِ عادِ

خَـــفّفِ الـوَطْء ما أظُنّ أدِيمَ الـ ... أرْضِ إلاّ مِـنْ هَـذِهِ الأجْـسادِ

سِـرْ إنِ اسْطَعتَ في الـهَوَاءِ رُوَيداً ... لا اخْـتِيالاً عَـلى رُفَـاتِ العِبادِ

يبتدئ الشاعر هذا المقطع بنداء إخوانه في الإنسانية، وكأنه يخاطب صاحبًا عزيزًا عليه، أثيرًا لديه، من خلال أسلوب الترخيم، وكأن أبا العلاء وضع نفسه موضع الحكيم المجرب الذي خُبر الحياة خير ما يكون الاختبار فأراد أن ينقل هذه الخبرة لبني البشر علّهم يفيدون منها، ولكن ما السبب الذي دعا أبا العلاء لأن ينظر إلى أناسه هذه النظرة؟ إنه فيما أحسب نظر إلى سلوكياتهم وتصرفاتهم فوجدها لا تتناسب وطبيعة هذه الحياة الغادرة، التي تغرّ البشرية بمظاهرها الفاتنة الزائفة حتى ليشعر أحدهم أنه امتلكها إذا ما منحته بعض الثقة بها، من خلال خير حصله فيها، أو مكانة شغلها، فيسير فيها سير الواثق المطمئن متبخترًا مختالا - (خفف الوطء)، (سِر إن اسطعت في الهواء رويدًا)، (لا اختيالا على رفات العباد) - متناسيًا أنه يسير على رفات آبائه وأجداده، ودون أن يشعر بأنها تكيد له، وتحيك له المصائب والمحن، حتى إذا ما ضمته بين جوانحها جعلته بمنزلة الغذاء الذي يغذوها ويمدها بالخصب والحياة. (ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد).

فالمفارقة في هذا المقطع تكمن في تباين نظرة أبي العلاء إلى الناس ونظرتهم إلى أنفسهم من جهة، وتباين نظرة أبي العلاء إلى الدنيا ونظرتهم إليها من جهة ثانية، فهو عندما بدأ خطابه إليهم من خلال (صاحِ) المرخم، وإبرازه لبرهان قاطع على ما تفعله الدنيا بأبنائها هو (هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد) كأنه أوجب على مستمعيه

أن يصغوا إليه؛ ليقفوا على نصيحته ويفيدوا من خبرته البادية في التفاته إلى الحقيقة التي أشار إليها، والتي قد تكون غابت عن أذهانهم. وعندما شعر بأن كلامه وقع في نفوس مخاطبيه موقع المنبه للعاقل من غفلته شرع في إبلاغهم رسالته ونصيحته آملاً منهم تأملها وتطبيقها، لاجئًا في ذلك إلى أسلوب المفارقة من خلال بيانه لهم أنهم ضحايا لمفارقة الحياة والقبور.

ولذا راح أبو العلاء يفضل الموت وأصبح محبوبًا عنده، ولا يدعو أبدًا إلى الحزن والقلق، بل يدعو إلى التهنئة والفرح بالحصول عليه، وهذه مفارقة غريبة إذا ما قيست بخوف الآخرين من الموت وحبهم للحياة[xvii].

يَدُلُّ عَلى فَضلِ المَماتِ إِراحَةَ جِسمٍ أَنَّ مَسلَكَهُ صَعـبُ
وَكَونِـهِ
أَلَم تَرَ أَنَّ المَجدَ تَلَقّاكَ دونَـــهُ شَدائِدُ مِن أَمثالِها وَجَبَ الرُعبُ
إِذا افتَرَقَت أَجزاؤُنا حُطّ ثُقلُنـــا وَنَحمِلُ عِبئًا حينَ يَلتَئِمُ الشَعبُ [xviii]
وَأَمسِ ثَوى راعيكَ وَهوَ مُوَدِّعٌ وَلَو كانَ حَيًّا قامَ في يَدِهِ قَعْبُ [xix]

فانظر إلى أبي العلاء كيف جعل الموت أفضل من الحياة، وحاول أن يدلل على صحة نظرته تلك عندما أجرى مقارنة بين الموت بوصفه راحة للجسم من عناء الدنيا ومشاقها وبين الحياة مستقر تلك المتاعب والمشاق، وكأنه يريد لمتلقيه أن يصل إلى النتيجة التي يريدها هو، وهي: أنه ما دام الإنسان يتخلص من متاعب الحياة ومشاقها وأعبائها وهمومها بموته، فالموت خير منها، ثم يأتي بمثال يعزز هذه النتيجة ويقويها لدى المتلقي، وهو أن طالب المجد والساعي إليه تلقاه دونه شدائد ومصاعب وأهوال تثير الرعب والخوف في نفسه، لكنه لا يبالي بها، ويمضي بعزيمة قوية نحو هدفه؛ لإيمانه بالخير الذي سيعود عليه إذا ما حققه، وكذا الساعي إلى الموت وطالبه، فإنه لا يناله بتلك السهولة، بل لابد له من مكابدة مشاق الحياة وأهوالها حتى يصل إلى مبتغاه، وما داما قد اشتركا في

الوسيلة فلابد من اشتراكهما في الغاية، ثم يمضي أبو العلاء في سوق الشواهد من وحي الحياة لتأكيد صحة نظريته غير آبهٍ لما جاء به من مفارقات ليس من السهولة التسليم له بها، فيقول: حينما يموت الإنسان وتتفرق أجزاؤه وأوصاله ينتهي عمله وسعيه في هذه الحياة الغرور، ويضع عن كاهله أعباءها وأحمالها، في حين تبقى تلك الأعباء والأحمال ملقاة على عاتقه ما دام حيًّا.

لكن، عند النظر في أبيات أبي العلاء التي قلب فيها الصورة تمامًا عن الموت، ربما تصعب موافقته في ما جاء به من مزايا للموت، فأين الساعي للمجد ذلك الذي تفترض فيه القوة والإرادة والشجاعة والأمل، والذي قد يحالفه الحظ ويوفق سعيه فيحصل على مبتغاه ويعلو شأنه، ويشيع ذكره، من الساعي للموت بما فيه من غموض وتشاؤم، وبما تكنه له النفوس من كره وخوف متغلغلين في أعماق أعماقها وبما فيه من انحدار تحت التراب ونسيان، ثم من أين جاء أبو العلاء بتلك الراحة التي يحظى بها جسم الميت، والتي لا تتاح للأحياء؟ فهل نظر إلى الموت على أنه النهاية التي لا نهاية بعدها؟ وأين هو من البعث والنشور، والحساب والعذاب؟ أم هل عدّ الموت مجرد حقبة تقيم فيها الأجساد في أجداثها مستقرة هانئة إلى أن تقوم الساعة؟ وأين هو من تحللها وأكل التراب لها؟ ثم أين هو من عذاب القبر إن كان يؤمن بذلك؟!، إنني لا أراه ينظر هذه النظرة إلى الموت، ويحاول تجميل صورته بهذه الطريقة؛ إلا لأنه يقف موقفًا مفارقًا من الحياة .

ومن صور المفارقة الأخرى قوله في فناء الدهر للناس [xx]:

أوْعَزَ الدّهْرُ بالفَناءِ إلى النّا سِ، فوَاهًا لذلكَ الإيعـــــازِ
وتَداعَوْا في آلِ زيدٍ وعمرٍو، وعزاهمْ، لتُرْبَةِ الأرضِ، عازِ
أعْرِضوا عن مَدائحٍ وتَهـانٍ، فالمَراثي أوْلى بكمْ والتّعازي

ففي هذه الأبيات يبدي أبو العلاء تحسره وتوجعه على ما قضى به الدهر على الناس، فقد أنذرهم بالفناء، هذا الفناء الذي يشملهم جميعًا دون محاباة أو تفريق، حيث ينهي

انتسابهم إلى ما يتفاخرون به من نسب شريف، ويردهم إلى نسبهم الأصلي والحقيقي ألا وهو التراب، الذي خُلقوا منه وإليه يعودون، وإذا كان هذا هو شأن الدهر في إفنائهم وردّهم إلى نسبهم الحقيقي، فما أحراهم بتعزية أنفسهم ورثائها بدلا من تبادل التهاني والمدائح، وكأن أبا العلاء ينعي الإنسانية كافة؛ لأن تصرف الدهر فيهم ظاهر وبيّن، وحكمه فيهم ماضٍ لا يقبل النقض أو الاستئناف وإذ قد تبين مآلهم ومصيرهم فحري بهم ألا يتفاخروا على بعضهم بأنسابهم وأمجادهم لأن الموت سيكون مآلهم جميعًا، ولا يفرق بين شريف ووضيع، أو بين عظيم وحقير، فالمفارقة لا تكمن في حكم الدهر على الناس بهذا المصير، ولا لكون المراثي والتعازي أولى بهم من المدائح والتهاني فحسب، وإنما في موقف أبي العلاء المتحسر على حالهم والمتوجع على مآلهم، وقد كان قبل ذلك يدعو إلى تهنئة ولاة الميت بموته، وإلى عدم الجزع من الموت.

وتأتي الأبيات التالية في هذا المقطع معززة حتمية الموت، وفناء الخلائق كلها[xxi]:

زُحَلٌ أشرَفُ الكَواكــبِ دارًا مِنْ لِقاءِ الرّدَى على ميعـــادِ
ولِنارِ المِرّيخِ مِن حَدَثانِ الدّهْـ ـرِ مُطّفٍ وَإنْ عَلَتْ في اتّقــادِ
وَالثَّرَيّا رَهينَةٌ بِافْتِراقِ الشْـــ شَمْلِ حَتّى تُعَدّ في الأفـــرادِ
كُلُّ بَيْتٍ لِلّهَدْمِ ما تَبْتَني الــوَرْ قاءُ والسّيّدُ الرّفيعُ العِمـــــادِ
والفَتَى ظاعِنٌ ويَكفيهِ ظِلُّ السْ سَدْرِ ضَرْبَ الأطّنابِ والأوْتادِ
والّذي حارَتِ البَرِيّةُ فِيـــــهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِن جَمـــــادِ
واللّبيبُ اللّبيبُ مَنْ لَيسَ يَغْتَـرْ رُ بِكُوْنٍ مَصيرُهُ للفَســـــــادِ

ففي هذه الأبيات يؤكد أبو العلاء حتمية الموت لكل ذي حياة، فزحل الكوكب المعروف بعلوه وارتقائه سيؤول إلى الموت، وكذلك المريخ سيتحول وهجه إلى انطفاء[xxii]، والثريا المعروفة باجتماع شملها سيتخطفها الموت الواحدة تلو الأخرى إلى أن تنتهي، وكذلك البيوت جميعها ستؤول إلى الهدم والدمار سواء في ذلك عظيمها وحقيرها،

وكأن الشاعر في كلامه أراد أن يعبر عن إحاطة الموت بكافة المخلوقات ما كان منها سماويًّا مفرطًا في العلو، وما كان منها أرضيًا مغرقًا في الدنو، وما دام الإنسان فانيًا وراحلاً عن هذه الدنيا الفانية، فظِلُّ الشجر يغنيه عن ضرب الأطناب والأوتاد فكيف بالبنيان الشامخة، وعليه فلا داعي لأن يشيد الإنسان البنيان، ويعلي القصور لأنه راحل عنها، فـ"عندما يتحقق الإنسان من أن الموت هو فناء شامل، يكتمل اكتشافه للموت، وتحت تأثير هذا الاكتشاف الشامل للموت يغمره شعور بعبث الحياة بقوة لا مثيل لها، فإذا كان الإنسان سيفنى عبر الأبد كله، وإذا لم يكن ثمة أمل في حياة أخرى: "فأي منفعة لمَن يتعب مما يتعب به" [xxiii].

فهذا الموقف يشكل مفارقة من حيث مخالفته للمنطق الديني من جهة، ولعامة الناس من جهة أخرى، حيث يمكن فهمه على أنه دعوة من أبي العلاء إلى الخمول والكسل في مقابل الجد والعمل، فقد قال تعالى: "وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسَ نصيبك من الدنيا"[xxiv]، وهناك قول يُروى عن الحسن البصري أنه قال: "اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا" وهذا ما عليه غالبية الناس، فلو أخذ الناس بموعظة أبي العلاء احتقارًا للدنيا وقناعة بالموت، لما وصلت البشرية إلى ما وصلت إليه من تقدم وازدهار في مختلف مجالاتها.

ويضيف الشاعر في البيتين الأخيرين معنى آخرا إضافة إلى قوله بحتمية الموت، هذا المعنى هو حيرة الناس في المصير الذي سيؤول إليه الميت، فبعضهم يقول بأن الموت يكون للجسم دون النفس، وبعضهم يقول بتناسخ الأرواح، والديانات السماوية لاسيما الإسلام تؤكد بعث الجسم والنفس، وبعضهم يقول بفناء الجسم والنفس كما هو الحال عند أبيقور الذي يعتقد أن " النفس هي نتاج تلاقٍ عرضي بين الذرات وأنها تتكون مع الجسد وتفنى بفنائه، ومن الجلي أن ما جذب أبيقور في هذه النظرية هو قابلية النفس للفناء

مع الجسم حيث أن هذه القابلية تجعل من جميع المخاوف الدائرة حول معاناة النفس وعذابها بعد الموت أمورًا لا أساس لها" [xxv].

وكأنَّ بأبي العلاء يعتقد الاعتقاد الأخير، (فالذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد) فهو مستحدث من جماد وإلى جماد يعود، لذلك وصف الإنسان الذي لا يغتر بكون (مصيره لفساد) باللبيب.

فكأنَّ أبا العلاء لا يريد التصريح بعقيدته تلك لما لا يخفى من الأسباب، وهو يعيش في مجتمع إسلامي، فلجأ إلى أسلوب المفارقة بأبرز معانيها وأدقها، فجاء بتعبير يحتمل معنيين أحدهما ظاهر قريب: وهو أن مصير هذه الحياة إلى فساد، وأن الدار الباقية هي الآخرة، وهذا ما يريده كثير من الناس ويقبلونه منه ويطمئنون إليه، وثانيهما: أن مصير الحياة إلى فناء أبدي، فناء يطال النفس كما الجسم، لذلك فاللبيب العاقل هو من لا يغتر بهذه الحياة، ولا يشقي نفسه فيها، ولا يكترث لما تأتي به من أفراح أو أحزان.

وقد كثرت الأبيات التي تدل على إنكار أبي العلاء للبعث والجزاء حتى ظن قارئها أنه لا رأي لأبي العلاء في هذه المسألة سوى هذا الرأي، ومن هذه الأبيات قوله:

ضَحِكنا، وكان الضّحكُ منّا سفاهةً، وحُقّ لسُكّانِ البَسيطةِ أن يَبكُوا

يُحَطّمُنا رَيْبُ الزّمانِ، كأنّنـــــــا زُجاجٌ، ولكن لا يُعادُ له سَبْكُ [xxvi]

فالمفارقة في موقفه هذا لا تكمن في مخالفته لعقيدة البعث والحساب في الإسلام عندما صور الناس بالزجاج من حيث استحالة سبكه بعد أن يتحطم فحسب، وإنما في قوله مثل هذا القول الذي ينكر فيه احتمالية عودة الأموات إلى الحياة وبعثهم بعدما فقدوها، وفي نفس الوقت تأكيده على قدرة الله وعظمته وعلمه جل وعلا ، فهو القائل [xxvii]:

وقـــدرةُ الله حقٌّ، ليس يُعجزُهـــا حَشْرٌ لخلقٍ، ولا بَعثٌ لأموات

وعلى النقيض من الصورة السابقة للبعث والجزاء في ذهن أبي العلاء، نراه يثبته، ويذكر سؤال القبر، ويطلب العفو والمسامحة من الله على ما أسلفت النفس من ذنوب في الدنيا، وهو تحوّل من النقيض إلى نقيضه، فها هو يقول [xxviii].

بعلم إلهي يوجِدُ الضعفُ شيمتي، فلستُ مُطيقًا للغدوِّ ولا المسـرى
غبرتُ أسيرًا في يديهِ، ومَن يكنْ لهُ كرمٌ تُكرَمْ بساحتهِ الأســـرى
أصبحُ في الدنيا كما هو عـــالمٌ، وأدخلُ نارًا مثل قيصرَ أو كسـرى
وإني لأرجو منه يوم تجـــاوُزٍ، فيأمرُ بي ذاتَ اليمين إلى اليسـرى
وإن أَعْفَ بعد الموْتِ مما يريبُني، فما حظّيَ الأدنى ولا يديَ الخُسرى

ففي هذه الأبيات يقف أبو العلاء موقفًا مفارقًا لموقفه الذي مثلته الأبيات السابقة في إنكاره للبعث، فها هو يقر بضعفه حيث لا يطيق المسير صباحًا ولا ليلا، ربما بسبب عاهة العمى التي أُبتلي بها منذ نعومة أظفاره، ثم ينظر إلى نفسه على أنه أسير لقضاء الله وقدره، ويستبعد أن يُعامل يوم القيامة معاملة كسرى أو قيصر مع ما قام به من عبادة الله في الدنيا، والله عالم بذلك، ويرجو الله أن يقدره على اجتياز الصراط حيث يكون من أهل اليمين الذين يكون مصيرهم الجنة، ويخلص من هذه الأبيات إلى أنه إن حصل على عفو الله ومغفرته مع اعترافه بتقصيره فلن يكون حظه سيئًا ولا يده خاسرة كما كان شأنه في الدنيا.

وقوله أيضا [xxix]:

سمّيتَ نجلَكَ مَسعـــودا، وصادَفَـهُ رَيبُ الزمانِ، فأمسى غيرَ مسعودِ
عودي يخافُ من الإحراق، صاحبُهُ، إن قال ربّي لأجسام البِلى: عودي

يعبر أبو العلاء عن سخرية من ذلك الذي سمَّى ولده مسعودًا راجيًا أن تكون السعادة حليفته في حياته، لكن المفارقة غير المنتظرة هي أحداث الدهر التي قلبت الآية وجعلته غير مسعود، فمسعود يدل اسمه على وقوع السعادة عليه، لكن أحداث الدهر جعلته متعوسًا، ثم يعبر بعد ذلك عن سخريته من مسألة البعث، فيقول: إن عوده يخاف من

الإحراق صاحبه، حيث صور جسمه بالعود المعروف باحتراقه واشتعاله بالنار، ثم يبدأ عجز بيته بحرف الشرط (إنْ) الذي قد يدل على تحقق الفعل والجواب، وقد لا يدل على ذلك، ثم يصف أجسام الناس بأنها بالية، وكأنه يستصعب إمكانية عودتها سليمة صحيحة كما كانت إذا جاء الوقت الذي يأمرها الله فيه بالعودة والنهوض، فهذه بعض الأبيات التي تدل على تشككه وحيرته في أمر البعث والجزاء.

والمتأمل لآراء أبي العلاء ومواقفه تجاه مسألة البعث والجزاء يجده متذبذبًا بين مواقف ثلاثة، فهو ينكر البعث تارة، ويثبته أخرى، ويحتار فيه تارة ثالثة، بحيث يصعب على الدارس الجزم بتصنيفه تحت موقف من هذه المواقف؛ لأن أي تصنيف له في أحد هذه المواقف لن يكون دقيقًا ومعبرًا عما كان عليه أبو العلاء، لأنه سيضطر حينها إلى الاعتماد على بعض أشعاره، وإغفال بعضها الآخر، وبالتالي لن يكون علميًّا في حكمه، أما ما أطمئن إليه فهو أنه كان في حيرة من أمره، ليس حيال هذه المسألة فحسب، وإنما في جوانب كثيرة من حياته، لا يستقر على رأي حيال أية مسألة أو موقف أو رؤية، فقد تجده مؤمنًا بأمر من الأمور حينًا على أثبت ما يكون الإيمان، ثم تجده جاحدًا به حينًا آخر على أكبر ما يكون الجحود.

الخاتمة

وأخيرًا فإن المفارقة التي نراها في شعر أبي العلاء ليست مفارقة دلالية فقط، وليست نمطًا لغويًّا فحسب، إنها مفارقة خلّاقة ناتجة عن عقل فلسفي قادر على إحداث التوازن في الوجود وقضاياه، والحياة وتقلباتها التي هي جزء مهم وأساسي من بنية الوجود.

فاستطاع أبو العلاء أن يرتفع فوق قضايا الوجود: الحياة والموت، الفناء والبقاء، الإيمان وإدعاء الإيمان، الفقر والغنى، التنسك والإلحاد، هذا الارتفاع فوق هذه القضايا هو الذي أتاح له رؤيتها رؤيةً عميقة تحمل صفاء ذهن وكشف لحقائقها، وكان سلاح أبي العلاء

الأساسي في هذا هو المفارقة، وهو سلاح لا يمتلكه إلا شاعر صاحب رؤية عميقة للوجود وفلسفة للحياة .

النتائج

١. **أولاً:** إن التعبير بأسلوب المفارقة قديم قدم البشرية، وهو موجود لدى كافة الأمم وفي مختلف العصور والأزمان لكن مفهومه الذي تقوم عليه الدراسات الحالية سواء العربية أو غيرها حديث.

٢. **ثانيًا:** أن مفهوم المفارقة مفهوم غني، إذ يقوم باستكناه النصوص ومناقشتها عقليًّا، فيقبل منها ما كان المقصود منه في ظاهر لفظه، ويرفض ذلك الظاهر حينما لا يعبر عن المقصود الحقيقي لمنشئ النص، ويبحث عما وراءه سعيًا للوصول لمراد صاحب النص.

٣. **ثالثًا:** أن النقد العربي القديم لم يعرف هذا المصطلح ولم يستخدمه في دراسة النصوص الإبداعية وتحليلها، لكنه كان يتضمن مصطلحات بلاغية تؤدي بعض معانيه، وتقوم ببعض وظائفه.

٤. **رابعًا:** أن أبا العلاء استثمر هذا المفهوم أيما استثمار، حيث استطاع من خلاله أن يعبر عما يريد، من غير أن يشعر الضحية بأنه يسخر منها مر السخرية، ويتهكم بها غاية التهكم.

٥. **خامسًا:** أن استخدام مفهوم المفارقة مكن الباحث من الكشف عن طبيعة أبي العلاء المترددة في كثير من مواقفه تجاه قضية الوجود والفناء التي طرقها في شعره.

الهوامش

(i) حسني عبد الجليل يوسف، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، ، مكتبة الآداب، الأوبرا، مصر، د.ت صـ١٥.

(ii) كلنث بروكس: لغة المفارقة، ترجمة: محمد منصور، مجلة الدار السعودية، العدد الثاني، ١٤١١هـ، ص١٧١.

([iii]) نبيلة إبراهيم، المفارقة، فصول، مجلد٧، عدد٣-٤، سنة١٩٨٧، ص١٣٢.

([iv]) نفسه، صـ١٣٢.

([v]) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، فصول، مجلد٢، عدد٢، سنة١٩٨٢، ص١٤٤.

([vi]) سي، دي، ميويك، المفارقة وصفاتها (موسوعة المصطلح النقدي)، ترجمة : عبد الواحد لؤلؤة، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، ط٢، ١٩٨٧م. صـ٤٣.

([vii]) خالد سليمان، نظرية المفارقة، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، سلسلة الآداب واللغويات، مجلد٩،عدد٢، ١٩٩١م، صـ٧٨.

(viii) للمزيد حول هذا الأمر: انظر كتاب: في الشعرية، كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، صـ٥٧- ٥٨.

(ix) سيزا قاسم، المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، مجلد٢، عدد٢، ١٩٨٢م، ص١٤٤.

(x) السابق نفسه، صـ١٤٤.

([xi]) اللزوميات: ج٢/ صـ٣٧٣، العُمُور: جمع عَمْر، وهو اللحم الذي بين الأسنان.

([xii]) السابق نفسه: ج١/ صـ٦٦، السُّجَرَاء: الأصدقاء.

([xiii]) اللزوميات: ج١/ صـ٧٣، يَغُلُّ: يكرر الشرب، الحساء: هو سهل من الأرض يتجمع فيه الماء.

وقد حذر الله من هذا السلوك في كتابه العزيز حيث يقول: {يأيها الذين آمنوا لمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون} الصف آية ٢-٣.

(xiv) اللزوميات: ج١/ صـ٦٦.

(xv) الطامث: المرأة الحائض. الإقراء: الطهر.

(xvi) شروح سقط الزند: ق٣/ صـ ٩٧١- ٩٧٧.

(xvii) اللزوميات، ج١/ صـ ٧٩.

(xviii) الشَعب: الفُرقة والشتات.

(xix) راعيك: والدك، القَعْبُ: القدح الضخم.

([xx]) اللزوميات، ج١/ صـ٥٣٣.

(xxi) شروح سقط الزند: ق٣، صـ٩٧١- ٩٧٧.

([xxii]) يوحي تعبير أبي العلاء في حديثه عن المريخ بأنه نجم أو ذاتي الحرارة والضوء من خلال قوله: (ولنار المريخ) و (مُطفٍ) و (اتّقاد)، وهذا الكلام علميًّا غير صحيح؛ لأن المريخ كوكب، والكواكب ليست ذاتية الإضاءة. لكنه ربما علم أنه يتصف بالحمرة فظنه ذاتي الإشعاع، ولذلك تفسير علمي . انظر: الطريق إلى المريخ، سعد شعبان، عالم المعرفة- الكويت، كانون الأول، ١٩٩٧، صـ٢٩.

([xxiii]) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، ترجمة: كامل يوسف حسين، عالم المعرفة، الكويت،١٩٨٤م، صـ٣٠.

([xxiv]) سورة القصص، آية (٧٧).

([xxv]) جاك شورون، الموت في الفكر الغربي، صـ٦٥.

([xxvi]) اللزوميات، ج٢/ صـ١١١.

([xxvii]) نفسه، ج١/ صـ ١٨٦.

([xxviii]) نفسه، ج١/ صـ٧٧.

([xxix]) نفسه، ج١/ صـ ١٠٧.